



+ آباؤنا القديسون

البار مكاروريوس الكبير

تعيّد الكنيسة المقدسة في التاسع عشر من كانون الثاني لتذكار القديس البار مكاروريوس الكبير المصري، الذي عاش ناسكاً في القرن الرابع. اسمه يعني المغبوط، وأصله القبطي هو مقار ويعني الصدق والأمانة. وبالفعل فقد كان صادقاً وأميناً لله حتى أنه نال الغبطة الأبدية في ملكوت الله.

وُلد مكاروريوس في قرية اسمها شبشير في الجزيرة في مصر حوالي العام ٣٠٠، في عائلة فقيرة ومسكينة. نشأ على التقوى والفضيلة واقتنى إحساساً مرهفاً بالخطيئة. يُقال انه حين كان يعمل راعي بقر في شبابه سرق مع رفاقه بعض التين وأكل كوزاً واحداً منها، ولما وعى الأمر ندم كثيراً وبقي يبكي على خطيئته هذه طيلة أيام حياته. استهوته الحياة الرهبانية فقرر الإنفراد في كوخ قرب قريته والإنصراف الى الصلاة والنسك نظير السائحين على دروب الرب. عندما رأى أبناء بلده فضيلته أرادوا جعله كاهناً لهم، أما هو فلم يرَ ذلك مناسباً لراحة نفسه ولروح النسك فهرب الى مكان بعيد وكان يخدم الله بالصلوات والتأملات والتقشف وصناعة السلال التي كان يبيعها ليقتات من ثمنها.

في موطنه الجديد لم يدعه الشرير يرتاح، لكنه كان يقبل جميع التجارب بتواضع ووداعة. سقطت فتلة في الزن وحبلت. ولما سألوها عن الوالد اهتمت المتوحد مكاروريوس، فخرجوا اليه وشتموه وضربوه وأهانوه، وجعلوه يتعهد بأن ينفق عليها وعلى مولودها. قَبِلَ بوداعة وعلى صورة معلّمه الأكبر الرب يسوع لم يفتح فمه ولم يبرّر ذاته، بل صار يعمل لكي يطعم الفتاة وينفق عليها. ولما حان موعد وضعها تعرّست ولادتها عدة أيام وأصابها آلام مبرّحة جعلتها تعي خطيئتها فاعترفت بالحقيقة. خرج سكان القرية الى مكاروريوس لكي يطلبوا السماح، أما هو فلما علم بقدمهم من خادمه، وعلم سبب مجيئهم، خاف من شيطان التكبر فهرب وسكن برية الإسقيط وكان أول ساكن لها وكان في الثلاثين من عمره.

في الإسقيط قسا مكاروريوس على نفسه وتقدّم في الفضائل وشاع صيت قداسته في كل مكان فاقتفى أثره الكثيرون وعاشوا معه، وصار مرشداً لهم وأباً روحياً. وفي سن الأربعين ألزمه الرؤساء الروحيون بالسيامة الكهنوتية لكي يستطيع أن يوزّع الأسرار الإلهية ويتمّ الخدم الرهيبة لجميع السائحين الذين كانوا يعيشون معه.

كان مكاروريوس مثلاً في التواضع حتى انه كثيراً ما كان يسترشد من هم أصغر منه سناً. يقال ان الشيطان أراد قتله بالمنجل فلم يفرع بل قال: " إن كان السيد المسيح قد أعطاك سلطاناً عليّ فيها أنا مستعد لأن تقتلني". فلم يستطع الشيطان أن يفعل ضده شيئاً بل قال له:

" يا مكاروريوس، انت تطرحني أرضاً بقوة عظيمة ولا أتمكن منك. كل ما تعمله أعمله أنا أيضاً. أنت تصوم وأنا لا أكل أبداً. أنت تسهر وأنا لا أنام أبداً. شيء واحد تغلبي به: تواضعك! من أجل هذا لا أقدر عليك."



+ آباؤنا القديسون

حفظ سيرة نسكيه صارمة وحياة تقشفية صعبة. ولكي يحفظ نفسه في الهدوء والصمت حفر في قلايته سرداباً طوله نصف ميل وأبتنى له في آخره مغارة يخلد الى هدوئها كلما زحمه الناس. ولما كان يمرّ مع تلاميذه بقرب واحة ماء كان يقول لتلاميذه الذين دعوه للإقامة هنا: " إن وجدتم لذة وراحة في ذلك المكان وعشتم من دون تعب وضيق، فكيف تتوقعون اللذة والراحة من الله؟" لم يكن يشرب إلا قليلاً من الماء ويأكل قليلاً من الخبز، أما نوميه فبإسناد رأسه على الحائط لبرهات وجيزة متباعدة غير متصلة.

كانت محبته لا توصف. يحكى ان مريضاً سأله خبزاً طرياً فمشى ستين ميلاً الى الإسكندرية وأحضره له. ومرة أتهم أحد الإخوة في القلاية بالزنى، فراقبه اخوة آخرون ورصدوا امرأة تدخل الى قلايته فأخبروا مكاروريوس. قصد مكاروريوس قلاية الأخ، فخاف هذا وخبأ المرأة في صندوق. دخل مكاروريوس وجلس على الصندوق ودعا الإخوة الآخرين ليفتشوا. ولم يجسر أحدهم أن يسأله الإبتعاد عن الصندوق. فلما انصرفوا أمسك مكاروريوس بيد الأخ وقال له: " أحكم على نفسك يا أخي قبل أن يحكموا عليك لأن الحكم لله" ولوقت تاب الأخ وصار مجاهداً كبيراً. أما مكاروريوس فسمع صوتاً يقول له: " طوباك يا مكاروريوس رجل الروح، يا من تشبّه بخالقه وستر العيوب مثله". وكان مكاروريوس يقول للجميع: " لا تصنع الشر بأحد، ولا تدن أحداً. إحفظ هذين الأمرين فتخلص." عاش مكاروريوس حوالي التسعين سنة وتوفي عام ٣٩١، وقد سُمع صوته الخافت يقول وهو سلم الروح: " يا سيدي يسوع المسيح، حبيب نفسي، إقبل روحي إليك." فبشفاعة قديسك يا رب ارحمنا وخلصنا.

+ من أقوال البار مكاروريوس

قبل وفاته خاطب مكاروريوس رهبان جبل نتريا مودّعاً إياهم بما يلي:

" يا أولادي الأحباء ... كثيرة هي أجماد القديسين ... وسبيلنا أن نعرف تدبيرهم وعملهم ... فلقد اقتنوا المسكنة وتواضع النفس وانسحاق القلب والجهاد في الصلاة ومحبة كل الناس وخوف الله... أما الجسد فرفضوا جميع شهواته ...

فرّوا من الخطيئة واصلوا الى الموت حفظ وصايا الرب. لا تقبلوا كسر أية وصية مهما كانت صغيرة، لأن كسر أية وصية، صغيرة كانت أم كبيرة، يغضب الله... لا يكن فيكم من يذكر الشر لأخيه... فإن القلب الذي يتفكر بالشر والبغضة لا يمكن أن يكون مسكناً لله... اقتنوا الحب لبعضكم لبعض لتقتنوا لأنفسكم كل تدبير الفضائل الأخرى في رهبنتكم.

... النفس التي لا تقبل الوقعة ولا تفكر في السوء على أحد ولا تميل الى حب الدرهم ولا تميل الى شهوات العالم تستضيء كالشمس... أفعال السوء مدخل للعدو... والواجب أن نحفظ أنفسنا جداً لئلا نصير آنية للشيطان...



+ آباؤنا القديسون

ليحرص كل واحد منكم على أن يمدح أخاه في غيبته حتى إذا سمع أخوه بذلك عنه ازداد في محبته ... متى كان قلب الإنسان غير نقي ونيته غير صافية فلا بد أن قلب أخيه يحسّ بذلك ... مهما حاول أن يتجمل بلسانه من نحوه. في قلب الإنسان سرّ إلهي. فإن حدث أن سمع أحد كلاماً صدر من أخيه عنه فلا يخبئه في قلبه ويحقد عليه ويحاسنه بلسانه وقلبه غير نقي. فهذه الحال تولّد البغضة المرة والمقت وهي تغضب الله ...

كل من يسمع التآديب ولا يقبله ولا يعمل به فهو خاسر نفسه... أوصيكم أن تبالغوا في خدمة القديسين والمرضى وادفعوا لهم قدر قوتكم من عمل أيديكم... كل تعب يتعبه الواحد منا سوف يستعلن له وقت خروج نفسه من الجسد... أحبوا التعب... طوبى لمن يبقى في تعب فرح القلب لأن التعب هو باب الفردوس المفتوح. أمل الذي يطيع ضعف الجسد فإنه يصبح غريباً عن الخيرات المعدة للمجاهدين ويتولاه الندم في القيامة حين يبقى بعيداً لا يملك إلا الحزن والكآبة التي لا تنفع !

... كل من يلازم فضيلة واحدة ويفرط بأخرى يشبه إنساناً أخذ إناء وملاه زيتاً وأهمل فيه ثقباً، ثم ركب وسافر فما وصل الى نهاية سعيه إلا والإناء فارغ مما فيه ... الوصايا كالسلسلة متى انفكت منها عروة تفلت بأكملها...

سيأتي وقت تسألون فيه عن ثمر كلامي وتعطون جواباً عما سمعتموه مني. فلا تجعلوا كلامي لكم سبب دينونة لأنني إنما كلمتكم لخلاصكم وصحة نفسكم... أفرغ الى الله لكي لا تُصطادوا بفخ الغفلة ولا تعتد قلوبكم التهاون... ما دمتم في الجسد فأمسكوا التوبة ولا تدعوها تفلت منكم لأن من فارقتها فارقت الرحمة وملكوت السموات... لنجتهد متشبهين بالصلحين لئلا نندم عندما نجدهم في النهاية في مجد عظيم... طوبى للذين يعملون بكل قوتهم.

إجعلوا أنفسكم غرباء عن هذا العالم لتصيروا أهلاً للخيرات الأبدية... إن صوم الأربعين هو الخميرة للسنّة كلها فيجب أن تتممه باحتراس لأن الخميرة إذا فسدت أفسدت العجين لكة... تيقظوا بالروح وامتلكوا بالإيمان حتى تمضوا الى الرب بدالة وتناولوا الإكليل الذي لا يُبلى ."